العدد الثاني والعشرون
2005

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1373 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2005 مسيحي

- المادّية في فكر المذاهب المعاصرة
- مكوّنات البنية وسمات الخطاب
- الفتوى بين النصّ الفقهيّ والواقع
- حقوق الإنسان في الإسلام

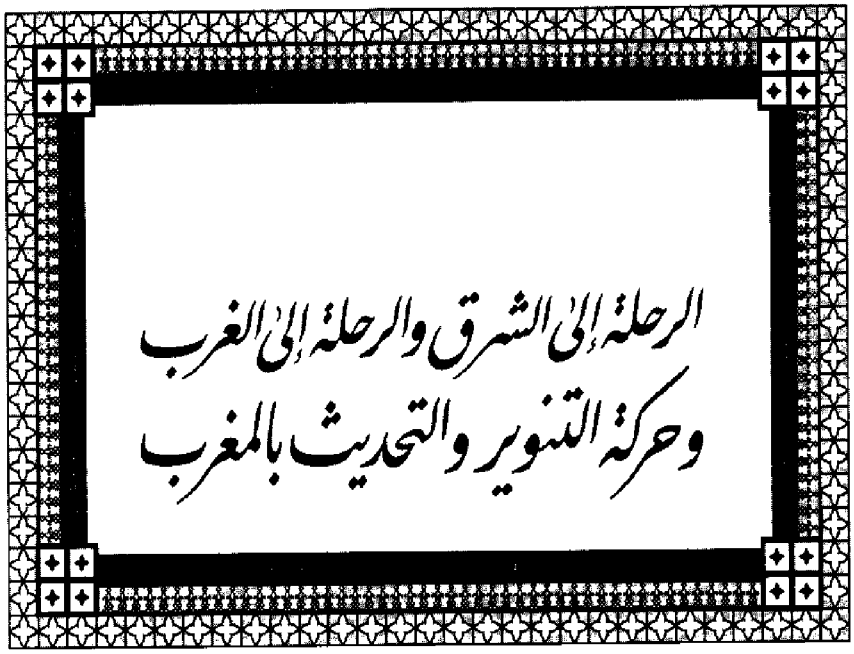

د. زكي مبارك
جامعة محمد الخامس بالرباط

مقدمة: أدب الرحلات في المغرب

خصص الفقيه عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المري صاحب (دليل مؤرخ المغرب الأقصى) القسم السابع من مؤلفه هذا للرحلات التي ألفها المغاربة فذكر أزيد من ثمانين ومائة. ولقد اعتنى بتحقيق ونشر بعضها الأستاذ محمد الفاسي الذي قال في شأن تفوق المغاربة في هذا النوع من التآليف، وولوعهم بالسياحة وارتيادهم لأقاصي البلاد، ولم يكن ابن بطوطة المغربي الوحيد الذي دخل أقاصي البلاد الشرقية ومجاهل أفريقيا، وإنما بقيت لنا أخبار أسفاره بفضل عناية السلطان ابن عنان المريني الذي أمر بجمعها. وقد صنف محمد الفاسي هذه الرحلات إلى حجازية، وسياحية، ودراسية، وخيالية،

واستكشافية، وزيارية، وسياسية، ومقامية، وفهرسية وسفارية[1].

من أصناف هذه الرحلات التي لها علاقة بموضوعنا: الرحلات الحجازية أي إلى المشرق العربي واسطنبول التي جعلناها تحت عنوان «**الرحلة إلى الشرق**»، والرحلات السفارية أي التي قام بها بعض السفراء المغاربة إلى دول أوروبا الغربية والتي جعلناها تحت عنوان «**الرحلة إلى الغرب**».

I ـ الرحلة إلى الشرق:
الوعي بوحدة الهوية والمصير المشترك

تعتبر الرحلات الحجازية من ابتكار المغاربة وهي الرحلة التي كانوا يتشوقون إليها نظراً لبعد أقطارهم عن الحرمين الشريفين بأرض الحجاز، وعن المسجد الأقصى بفلسطين. فالحج يعد ركناً من أركان الإسلام الخمسة، والصلاة بالقدس الشريف جزء من العقيدة الإسلامية انطلاقاً من قول الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. لذا كان الحجاج المغاربة متحمسين لأداء هذه الفريضة والقيام بزيارة المآثر الإسلامية الشهيرة فعملت الفئات الواعية منهم، من رجال الفكر والأدب، والدين على ترجمة أحاسيسهم ومشاعرهم في كتابات وتآليف لتكون مبراساً ودليلاً يهتدي به من يأتي بعدهم. كما جاءت مدوناتهم عن تلك الرحلات صورةً حية لأهاليهم وذويهم من المغاربة يشفون بها حنينهم لزيارة بيت الله الحرام، وقبر الرسول ﷺ، وباقي المآثر الإسلامية الآخرى. وأول من بدأ هذا النموذج من الرحلات ابن جبير الأندلسي، ثم سار على نهجه ابن سعيد المغربي، وابن بطوطة، والعياشي،

---

(1) زكي مبارك: من أدب الرحلات: تحفة الملك العزيز بمملكة باريز. للأديب الكاتب إدريس العمراوي ـ مطبعة طنجة ـ 1989. ص5. اعتمدنا على كتاب: الإكسير في فكاك الأسير للسفير ابن عثمان المكناسي ـ حققه الأستاذ محمد الفاسي، من مطبوعات المعهد الجامعي للبحث العلمي.

وغيرهم مما لا تزال خزائن الكتب والمخطوطات تحفظ بنصوصها في انتظار باحثين جدد يكشفون عن كنوزها[2].

من دوافع رحلة المغاربة إلى المشرق العربي كذلك رغبة المتنورين منهم في التوقف بمراكز الثقافة العربية الإسلامية في كل من مصر والشام، والعراق، واسطنبول، والقدس الشريف، حيث حرضوا على الاتصال بكبار علمائها ومفتيها والأخذ عنهم، والقراءة عليهم، ولقاء العديد منهم. ولقد استمرت هذه الصلات الثقافية بين رجال الفكر والقلم المغاربة، وبين إخوانهم المشارقة ولم تنقطع أبداً وإلى اليوم، لأنها ظلت تنتعش وتتغذى بالعطاءات المتبادلة، عطاءات تستمد مقوماتها الروحية والفكرية من منبع واحد لا ينضب ولا يجف، منبع التراث العربي الإسلامي المشترك[3]. إن هذا التراث بكل مقوماته وقيمه الإنسانية شكل الحبل الوريد الذي يشد المغاربة بإخوانهم المشارقة، والمشارقة بإخوانهم المغاربة. لذا كان طبيعياً أن تهتم الفئات الواعية بكل التحولات التي تطرأ في أي جهة من جهات دار الإسلام وخصوصاً منها تلك التي تحتضن مراكز الحضارة العربية الإسلامية وتعتبر منارات للعلم والمعرفة، وفي طليعتها مصر العروبة والإسلام، مصر الأزهر الشريف. من أهم الأحداث البارزة التي عرفتها مصر والمشرق العربي والتي كان لها صدى قويٌّ لدى الفئات الواعية والحاكمة بالمغرب، حملة نابليون وما خلفه هذا الحدث العالمي من تطورات وتحولات في الميادين الفكرية والسياسية والتعليمية والإدارية والعسكرية في المشرق العربي واسطنبول. لقد اهتم الحجاج المغاربة بهذا الحدث فخصصوا له في رحلاتهم وتقاريرهم صفحات طويلة وأحاديث مفصلة. ولما كان هذا الحدث

---

(2) محمد الكحلاوي: آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلس ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ـ 1993م ـ ص12 و13.

لقد أشار الباحث في دراسته هذه إلى مجموعة من الرحلات التي ألفها المغاربة فأعطى عنهم وعنها نظرة تعريفية وذكر أسباب ودوافع رحلة المغاربة إلى المشرق العربي (ص15).

(3) محمد الفاسي: الرحلات السفارية ـ مجلة «وحي البينة» المغربية ـ دار الكتاب ـ الدار البيضاء ـ 1970 ـ ص71.

وما أعقبه من تحولات في المشرق العربي قد شكل (صدمة الحداثة) التي تؤرخ لنشأة الفكر النهضوي العربي والإسلامي الحديث، فلقد اهتمت به الفئات المتنورة في المغرب وسعت إلى الاطلاع على أسسه الفكرية والمعرفية. عن هذه الصدمة ونتائجها ومخلفاتها الإيجابية والسلبية سيحدثنا بعض الفقهاء المغاربة، وبعض رجالات حكومة سلاطين المغرب الذين أوفدوا للاطلاع على أحوال المشرق العربي بعد حملة نابليون، كما سيتحدث عنها كذلك بعض المثقفين المغاربة الذين جالوا وتجولوا بالمشرق العربي. وقد شكلت كتاباتهم وتقاريرهم المختلفة الروافد الأولى لحركة التنوير والتحديث بالمغرب.

1 ـ رحلة الفقيه محمد بن عبد الله الغيغائي (مارس 1858م)

صاحب الرحلة ولد بقبيلة غيغاية بأحواز مدينة مراكش المغربية. كان كاتباً عدلاً معاصراً للسلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام (1822 ـ 1859م). تعد رحلته في مقدمة الرحلات الحجازية التي تعطي عن العالم العربي والإسلامي معلومات قيمة. نص الرحلة ما زال مخطوطاً وتحتفظ به المكتبة العامة بالرباط. قام أخيراً الدكتور سعيد ابن الأحرش بدراسة عن هذه الرحلة وهي التي اعتمدناها في هذا البحث[4]. عاش الغيغائي الحرب المغربية الفرنسية التي انهزم فيها الجيش المغربي في معركة إيلسي (1845م). كما عاش المحاولات الاحتلالية للتراب المغربي من طرف الإسبان. ولهذا فإن الوجود الأوروبي في المشرق العربي سيسترعي انتباهه منذ أن وطأت قدماه أرض الكنانة. إنه يفيض في الحديث عن خطورة هذا الوجود الذي اعتبره تحدياً وانتهاكاً لحرمة دار الإسلام. وإلى هذا المعنى يشير صاحب الرحلة: «... **من يحاج النصارى اليوم ويغالبهم لعلو كلمتهم في البحار والمراسي وفي سائر الثغور؟ فلا يخفى أمر النصارى وقوتهم في هذا الصدد على من له عقل أو سلك بلادهم، أو جاورهم**

(4) سعيد ابن الأحرش: الرحلات المغربية إلى الديار المقدسة وتركيا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين: مصدر للمعلومات عن العالم الإسلامي. بحث قدمه الباحث في ندوة: مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي التي احتضنتها المملكة العربية السعودية في أكتوبر 1999.

دمرهم الله، وكسر شوكتهم، وفرق جمعهم»[5]. ويضيف حول تفوق النصارى وما أخذوا يشكلونه من تهديد على الأمة الإسلامية قائلاً: «**وحاصل الأمر وغايته ان النصارى لعن الله دينهم، تفوقوا على المسلمين وعلت كلمة الكفر في الثغور، وذلت كلمة الإسلام في كل الأمور، ووقع الهول والفتنة وخمدت الفكرة والفطنة وبهذا سلط الله على قلوبنا خوف أعدائنا فاخترنا التلذذ بالغالي بترك الجهاد**» لقد اتخذ الغيغائي من بلاد مصر نموذجاً للتخاذل والانحطاط والتفكك، وخضوعها المطلق للسيطرة الأوروبية والانصياع لها. فقد احتل حديثه عن مصر حيزاً كبيراً من الرحلة فتعرض للعادات الجارية في اللباس والمأكل والمشرب، كما شرح التقاليد المتبعة في إقامة الحفلات، ودوَّنَ ارتساماته عن الشرائح الاجتماعية ملاحظاً أن من دناءة هذا القطر المصري خدمة النصارى، مشيراً إلى أن الفقراء أكثر الناس حياء وخجلاً إزاء هذه الوضعية المزرية[6].

عن الجانب الثقافي والمعرفي تعرض الرحالة إلى ذكر من التقى بهم من علماء مصر وفقهائها كإمام المالكية محمد بن عبد الله بن علياش الذي أفتاه بمنع الحج على ظهر الباخرة مما يحصل من المزاحمة والضيق، كما أجرى حديثاً ودياً مع كبار الحنفية منهم الشيخ الرافعي، والشيخ إبراهيم الباجوري. كما حضر الغيغائي حلقات الدروس التي كانت تعقد بالأزهر الشريف، وأبدى اهتمامه بالأزهريين وبوضعيتهم وبأحوالهم حيث قال عنهم: «. . . **إنهم اليوم غير معنيٍّ بهم ولا مبال بأحوالهم من الدولة، وقد كان لهم في الزمن القديم رواتب وأعلى المراتب، أما اليوم فلا معين لهم إلا الله تعالى**»[7]. انتبه الرحالة إلى وضعية طلبة الأزهر الوافدين عليه من الأقطار العربية والإسلامية فتعرض إلى أحوالهم، وتحدث عن نظام سكناهم وطريقة العيش والأحياء السكنية المخصصة لهم والتي تدعى بالأروقة فذكر منها رواق الطلبة الأتراك، ورواق الشاميين، ورواق

(5) سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص19.

(6) سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص19 و20.

(7) سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص20.

الصعيديين، ورواق المغاربة. ولم يفت الرحالة ذكر مطبعة بولاق ودار الكتب المصرية التي قال عنها: «... **وهذه الدار مملوءة كتباً من كل فن وعلى كل لغة من الأجناس**»[8]. وإذا كانت بعض الجوانب الاجتماعية من المجتمع المصري قد أقلقت الرحالة المغربي، الفقيه، فإن بعض النواحي من الحياة الاقتصادية قدحظيت برضاه واستحسانه لكونها في نظره من الأسس الضرورية للإقلاع التنموي والنهوض بالحركة التجارية والمواصلات: فمن ملاحظاته في هذا المجال شق الطرق وتعبيدها وإنشاء القناطر والموانىء، وهي أشغال إنمائية قامت بها الحكومات الإسلامية على طول الطرق المؤدية إلى بيت الله الحرام، وفي أماكن أخرى من البلاد العربية. ومما استرعى انتباهه كذلك المواصلات السلكية واللاسكلية التي اعتبرها الرحالة المغربي أداة ناجعة ونافعة لمعرفة الآخر وما يجري في العالم بسرعة مذهلة. عن هذه الالة يقول:« ... **هذا السلك أحدثه الروم نحو خمسة أعوام، وهو يجلب أخبار، وصفاته انه مصنوع من حديد رطب على قدر شريط الحصير المصنوع من الدوم كالخيوط تورد أخبار وتصدر بها في الحين من كل ديوان، وبها رجال من الروم واقفون عليها، عارفين بها. فإذا أردت أن يخبر بها عنك قيدت له حاجتك في الكتاب، ويطرحه أمامه وتنظر اليد وهو يحرّك الالة، فإذا أردت أن تخبر صاحبك عن سلعة أو أمر، تقيد كلامه وتعطي عليه درهماً عن كل حرف ويخبر به صاحبه بالسلك ويخبر صاحب السلك الآخر، صاحبك**» من غرائب الأمور التي حيرت عقل الغيغاني القطار، أو كما يسميه بابور البر. خصص له صفحات طوالا وصف كل أجهزته وصفاً دقيقاً. هذا القطار يوضح الرحالة «... **يسميه المشارقة ببابور السكة، إذ السكة عندهم هي الطريق. إنما البابور منه الموضع المقدم الذي هو رأسه، وفيه الحركات والالات. فالقطار هو على غير شكل البابور البحري لأنه يحمل على قطع أعواد لها أدوار من حديد وهي غاية ما يكون من الصنعة والحكمة والإتقان.**

---

(8) سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص18. يتعلق الأمر بالتليغراف الذي تم اختراعه سنة 1794م من طرف الفرنسي Claude Chappe (1763 ـ 1805).

وهذه السكة (الطريق) التي يجري فيها مفروشة بالحديد من الجانبين»[9] ويختم الغيغاني حديثه عن غرائب المخترعات وعجائب الالات التي شاهدها بمصر وغير مصر بالإشادة بمخترعيها والاعتراف لهم بالتقدم والتفوق وهو يقصد هنا بالدرجة الأولى أوروبا بما أنشأته بالمشرق من وسائل وأسباب النهضة الاقتصادية والتجارية معتبراً ذلك من الإلهامات الربانية والاستنباطات البديعة.

2 ـ رحلات أبو إسحاق إبراهيم بن محمد التادلي (1827 ـ 1894م)

«شخصية علمية غريبة الأطوار كان من الممكن ان تقوم بأكبر دور في خلق نهضة علمية واجتماعية بالمغرب في القرن الماضي لو ساعدتها الظروف ووجدت المناخ الصالح»[10] الفقيه التادلي من علماء المغرب الذين تأثروا بالثقافتين العربية الإسلامية والغربية على حد سواء. فمن خلال رحلاته العريضة وجولاته الواسعة في المشرق العربي حيث زار الحجاز، ومصر، وفلسطين، ولبنان، وسوريا، وتركيا، أتيحت له فرص اللقاء بخيرة رجالات العالم والسياسة كالشيخ جمال الهندي، والشيخ أحمد بحلان، والشيخ عليش. كما أتيحت له فرصة اللقاء وهو في بيروت بالشيخ محمد عبده الذي كان منفياً بها إثر ثورة عرابي المصرية. لقد ألقى الشيخ التادلي درساً في القدس الشريف حضره أمير البيان شكيب ارسلان وكان يومئذٍ حدثاً صغير السن. أما رحلاته إلى البلدان الأوروبية وإقامته بها كإسبانيا، وجبل طارق الإنجليزية، قد مكنته من الاطلاع على مظاهر الحضارة الأوروبية وتعلم اللغات الأجنبية كالإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية. وفي هذا الصدد كتب التادلي: «. . . **قيدنا بجبل طارق من بلاد الروم أيام إقامتنا به بعض**

---

(9) سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص 18.

(10) عبد الوهاب بن منصور: أعلام المغرب العربي. الجزء الأول ـ المطبعة الملكية ـ الرباط 1979 ـ ص172. عن الرجل وعن حياته الفكرية الرجوع إلى كتاب العلامة عبد الله الجراري: شيخ الجماعة العلامة أبو إسحاق التادلي الرباطي. ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ الطبعة الأولى ـ الدار البيضاء ـ 1980م. يمكن كذلك الإعتماد على ما كتبه عن الرجل الفقيه محمد المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث ـ الجزء الأول ـ مطبعة بيروت ص: 321 ـ 322 ـ 323 ـ وعلى هذه المصادر الثلاثة اعتمدنا في هذا البحث.

ألسن الروم. وقيدته عن بعض المسلمين هناك لاضطرارنا إلى السفر مع النصارى ومخالطتهم، فيعرف الإنسان على الأقل أسماء الماء للوضوء، والحجر للتيمم، والماء البارد، والحار، والفحم، والطبخ ونحو ذلك من ضرورات الإنسان»[11].

الإنتاج الفكري لدى إسحاق التادلي غزير ومتنوِّعُ الموضوعات. من أهم تآليفه:

- تفسير بعض اللغات مثل لغة الفرس والترك والفرنسيين والانجليز والبربر.
- اختصار أقوم المسالك، في معرفة أحوال الممالك لخير الدين التونسي.
- رسالة في علم الجغرافية.
- رسالة في البوصلة التي تكون في السفن.
- زينة النحر لعلوم البحر.

من هذا المؤلف الأخير نقتطف الفقرات الآتية التي يقول فيها التادلي: «**لما من الله علي بالتوفيق لأداء فريضة الحج، وزيارة البيت المقدس والشام وأرض الروم، فاضطررت إلى ركوب البحر مراراً، تارة في سفن الشراع، وتارة في سفن النار المسماة بالبابورات، وتلاقيت مع أهل العلم والخبرة بسفر البر من المسلمين والنصارى، فاقتطفت منهم ما أمكنني من حكم سفره، لما ورد: الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها ولو من كافر، كما أشار له ما ورد: اطلبوا العلم ولو بالصين، مع النصين في ذلك الوقت للكفار، قيدت ذلك في الرسالة لينتفع بها من اضطر لركوب البحر إن شاء الله تعالى**».

أما عن مشاركته في الحياة السياسية بالقدر الذي تمسح به مفاهيم العصر وأحكامه في ذلك الوقت: «. . . **فلا عجب أن يكون الشيخ من الرعيل الأمين الذي هزّهم الحماس ليلبوا بقلمهم ولسانهم في هذا المضمار خائضين في الميدان، ولو دبلوماسياً على الأقل. فقد كان يجري في المحافل العلية والسياسية أنه حمل رسالة موقعة من أعيان الرباط إلى السلطان عبد الحميد**

---

(11) محمد المنوني: يقظة المغرب الحديث ـ المصدر السابق ذكره ـ يشير الكاتب إلى أن نسخة من هذه المخطوطة ما زالت في حوزته ونسخة أخرى محفوظة بالمكتبة الصبيحية بمدينة سلا المغربية.

العثماني قصد ربط علاقة المغرب وتركيا عندما أحس بخطر الاستعمار وتكالبه على البلاد الإسلامية، وحمل التادلي تلك الرسالة يدل على ان الرجل كانت له خدمات سياسية إنسانية علاوة على رسالته العلمية التي عرف بها»[12].

إن الرحلات المتكررة للعلامة التادلي إلى تركيا جعلته يستوعب ويفهم التحولات التي يعيشها هذا البلد الإسلامي وهو يحتك بالأجنبي، وما كان لذلك من تأثير على الأوضاع والمقومات الاجتماعية والدينية والأخلاقية. لقد فهم ذلك بالاجتماع بالدعاة والمصلحين وكبار العلماء كما شاهد بوادر النهضة في تركيا فسعى إلى ربط وتمتين الصلات والتعاون الأخوي بين المغرب وهذا البلد الإسلامي وبذل مجهودات في الأوساط الحكومية والثقافية المغربية من أجل ذلك «**غير ان الحكومة المغربية لم تستجب لأية رغبة أبدتها تركيا في هذا الموضوع في ذلك الوقت ولا في غيره بسبب الخوف من انتشار النفوذ العثماني والضغط الذي كانت تمارسه القوى الاستعمارية على السلطان المغربي خوفاً من تعاون الدولتين الإسلاميتين اللتين كانت إحداهما تمسك بمفاتيح البحر الأبيض المتوسط من طرفه الشرقي، والأخرى تمسك بمفاتيح مدخله الغربي**»[13].

من نشاطه الفكري والسياسي كذلك لا بد من ذكر اهتمامه البالغ بكتاب **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، لخير الدين التونسي الذي زار تركيا عدة مرات ما بين (1853 ـ 1867م). ظهر كتاب خير الدين التونسي سنة 1867م، واطلع عليه الشيخ التادلي وقام بتلخيصه متأثراً بما يحتويه من أفكار جديدة ونظريات حول شروط النهضة العربية الإسلامية وأساس الحكم العادل. من هذه الأفكار والنظريات انطلق العلامة التادلي لنشر دعوته الإصلاحية فأصبح من المصلحين الأوائل الذين اقتنعوا بأن على الشرق ان يغير أساليب الحكم الاستبدادي، كما عليه كذلك أن يأخذ بعين الاعتبار: «**الوسائل التي أوصلت**

---

(12) عبد الله الجراري: شيخ الجماعة العلامة أبو إسحاق التادلي الرباطي ـ مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى ـ الدار البيضاء ـ 1980م ـ ص27 و28.

(13) عبد الوهاب بن منصور: أعلام المغرب العربي ـ المطبعة الملكية ـ الرباط ـ 1979 ـ ص173.

الممالك الأوروبية إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية فيتخير منها ما يكون بحالة المسلمين لائقاً ولنصوص شريعتهم مساعداً وموافقاً»[14].

من نشاطه السياسي كذلك سعيه الحثيث في إبطال ضريبة المكس التي كانت مفروضة على أبواب المدن المغربية فتضرر منها الشعب، فأفتى بعض العلماء بعدم شرعيتها. لقد تصدى الفقيه للسلطان مولاي الحسن بكل شجاعة، منددا بهذه الضريبة حتى إنه بعث للسلطان بواسطة المتصلين به بالنكير ضد هذه الضريبة وعنها كتب «. . . **طلب مني السلطان مولاي الحسن نصره الله وأصلحه، أن أحضر معه بمسجده بالرباط على العادة عنده في تلك الليلة. . . فامتنعت، واعتذرت له بأني غير صحيح، ونويت اني غير صحيح مما يفعله من المظالم: المكوس**»[15]. وتصلب العلامة التادلي في موقفه إلى أن ألغى السلطان هذه الضريبة بظهير شريف عام 1885م. هذه المواقف الشجاعة جعلت من الشيخ التادلي أبرز العلماء المغاربة الذين ظلوا ثابتين على المبدأ، متشبثين بالقيم الإسلامية والأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها العلماء في المجتمع الإسلامي ليقوموا بدورهم في حركة الإصلاح والتجديد واليقظة الإسلامية. لقد تفطن الشيخ محمد عبده لخصال العالم المغربي حينما التقى به ببيروت وجرت بينهما حوارات دينية وسياسية وفقهية تركت في الشيخ محمد عبده آثاراً حميدة، فأعجب بآراء التادلي الصائبة وأفكاره النيرة المتحررة غير ناظر إلى تكوينه التقليدي الذي قد يتسم بالتزمت والتحجر. إن الفقيه عبد ا الجراري الرباطي يعتبر الشيخ التادلي من المجددين الذين قال فيهم الرسول عليهم السلام: «**إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[16]. وككل المجديين والمصلحين تعرض الشيخ التادلي للمحن والإهانة والمذلة من طرف

---

(14) المنصف الشنتوفي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ـ الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية لكتاب الجزائري ـ الطبعة الثانية ـ 1986 ـ ص85.

(15) محمد المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث ـ الصمدر السابق ذكره ـ ص298.

(16) عبد الله الجراري: شيخ الجماعة العلامة أبو إسحاق التادلي الرباطي ـ المصدر السابق ذكره ص36 و44.

السلطات الحاكمة المغربية. لقد سجن دون أن يتضح السبب لمعاصريه، مما جعل الأقوال تضطرب في شأنه. غير أن العارفين بالأمور يرجعون أسباب سجنه إلى مواقفه الشجاعة، وشهرته الكبيرة في الأوساط العلمية والشعبية وغيرها، حيث أكب الناس على حضور مجالسه للانتفاع بعلمه والاسترشاد بمعارفه. ويضيف الفقيه عبد الله الجراري انه كان بالإمكان ان تقوم هذه الشخصية الفكرية بدور طلائعي في اليقظة المغربية لو وجدت المناخ الملائم والعقول النيرة والحكام ذوي إرادة صادقة للتغيير والإصلاح والتحديث.

3 ـ كتابات الحاج علي زنيبر السلاوي (1844 ـ 1914م)[17]

نشأ الحاج علي زنيبر في مدينة سلا المغربية سنة 1844م وذهب مع والديه وهو صغير السن إلى الديار المقدسة بقصد المجاورة. وبعد وفاتهما عاد إلى مسقط رأسه وعمره إذ ذاك نحو سبعة أعوام. وفي العقد الرابع من عمره توجه إلى مصر سنة (1878 ـ 1879م) فاشتغل بالتجارة في الإسكندرية وقيل كذلك في مدينة طنطا، فامتدت إقامته بمصر فترة طويلة عايش خلالها حرب عرابي باشا وساهم فيها، كما عايش معطيات اليقظة المصرية. خلال مقامه بمصر: . . . **دفعته غيرته الوطنية إلى الاهتمام بشؤون المغاربة من حجاج وغيرهم والتطوع للقيام بأعمال يقوم بها عادة القناصل المعتمدون رسمياً حتى كان يدعى أحياناً «وكيل المغاربة». وحدث في إحدى السنين أن تأخر خروج مركب الحجاج في موعده المضروب من مصر، فتكلف الحاج علي بنفقة الحجاج المغاربة أثناء فترة الانتظار التي دامت أياماً باتفاق مع شركة المركب. لكن هاته الأخيرة لم تفِ**

---

(17) اعتمدنا للتعرف على مختلف أطوار العلامة الحاج علي زنيبر على ما كتبه عنه كل من الأستاذ المنوني في مؤلفه: مظاهر يقظة المغرب الحديث ـ الجزء الثاني من ص399 و421. وما كتبه عنه أحد أفراد عائلته المؤرخ المغربي محمد زنيبر في مجلة «دار النيابة ـ المغربية» تحت عنوان: «وقفة مع شخصية الحاج علي زنيبر ودلالاتها التاريخية» ـ السنة الثانية ـ العدد السادس ـ ربيع 1985م ـ ص17 إلى 20. والعدد الحادي عشر من نفس المجلة ـ صيف 1986م ـ ص14 إلى 19. كما اعتمدنا على الدراسة التي أنجزها باللغة الفرنسية تحت عنوان:

Nation et Nationaliseme au Maroc - P471 - 472. للباحث: جاك كاني Jaques Cagne.

بالتزامها، ونزل على عاتق الحاج علي عبء النفقة الذي كان ثقيلاً إلى درجة أنه افتقر واضطر للعودة إلى بلاده سنة 1904م بعد أربعة وعشرين عاماً من الإقامة بمصر»[18]. استقر علي زنيبر في بداية الأمر بمدينة طنجة العاصمة الديبلوماسية للمغرب، فصادف وجوده بهذه المدينة تحركات ديبلوماسية مكثفة من قبل الديبلوماسيين والسياسيين ورجال الصحافة والإعلام التابعين للدول الأوروبية المتنافسة على احتلال المغرب. ضمن هذا السياق تابع بكل اهتمام وحس وطني مفرط زيارة الأمير الألماني غليوم الثاني للمدينة سنة 1905م، والمحادثات الفرنسية الإسبانية الإنجليزية الإيطالية لاقتسام المغرب، والمشاريع الإصلاحية التي عرضتها هذه الدول على السلطان المغربي من أجل الأخذ بها، والمشاورات الأولى من أجل عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء والذي سينعقد سنة 1906م[19]. ويغادر الحاج علي زنيبر مدينة طنجة ليستقر بمدينة فاس وهو مشحون بأفكار النهضة المصرية التي واكبها وتأثر بها وساهمت في تغيير عقليته وأفكاره، ومشحون كذلك بما اكتشفه خلال مقامه بطنجة من مناورات الدول الأوروبية، ومما تبدله من مجهودات وترسمه من مخططات في المجال الفكري والإعلامي لتهيئةِ الرأي العام الوطني والدولي للسيطرة على المغرب. وقد لعبت صحف طنجة التي صدرت إبان هذه الفترة بإيعاز من رجال الديبلوماسية والمال والأعمال دوراً بارزاً في هذا المجال[20].

عاد الحاج علي زنيبر إلى فاس وهو متيقن كل اليقين بأن المغرب في

---

(18) محمد زنيبر: وقفة مع شخصية الحاج علي زنيبر ـ مجلة دار النيابة ـ المصدر السابق ذكره ص18.

(19) في هذا المؤتمر واجه المغرب وحدة أزيد من 10 دول أوروبية وتمسك خلال مداولات المؤتمر باستقلاله وسيادة سلطانه وأقر على إدخال الإصلاحات التي تقترحها أوروبا شريطة ان تكون بإشراف السلطان المغربي وغير مقيدة لسلطاته الدينية والدنيوية، على أن يقتصر دور الدول الأوروربية على تقديم الخبرات والمساعدات التقنية والمالية التي تتطلبها هذه الإصلاحات.

(20) تناولت دور هذه الصحف في بحث بعنوان: مساهمة لبنان في دعم الثقافة العربية والفكر التحرري بالمغرب ـ قدم في الندوة التي احتضنتها بيروت أيام 3 و4 دسنبر 1998م. اشرت في هذا البحث إلى الصحافة العربية بطنجة ودورها ففي مواجهة الصحف والإعلام الاستعماري والدفاع عن الحقوق المغربية وسيادة سلطانه.

طريقه لا محالة إلى الاحتلال والسقوط في أيادي القوى الأوروبية. وكفقيه متشبع بالفكر الصوفي وبالدعوة الإصلاحية التي تأثر بها خلال مقامه بمصر النهضة، فقد رأى أنه من واجبه القيام بمهمته كرجل من رجال المتصوفة المخلصين لمبادئهم ومثلهم العليا: «... **متمسكاً بالشريعة قولاً وعملاً، خبيراً بالحق، باذلاً جهوده في أداء النصيحة**»[21]. من هذا الإحساس وبإيعاز منه، حرر الحاج علي زنيبر عدة مذكرات سياسية يشرح فيها وجهات نظره في القضايا الشائكة التي كانت مطروحة على المغرب وتتطلب الحل والإصلاح. من بين الموضوعات التي تناولتها مذكرات الفقيه زنيبر تلك التي تحمل عنوان:

- حفظ الاستقلال. ولفظ سيطرة الاحتلال[22].
- مشروع دستور مغربي يقترحه على السلطان عبد العزيز[23].

حفظ الاستقلال. ولفظ سيطرة الاحتلال:

استهل المصلح مذكرته بتفسير كلمة الاستقلال وقارن بين مدلولها اللغوي والسياسي وواقع البلاد المغربية التي ما زالت في نظره، قانونياً، رغماً على مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، في حالة استقلال داخلياً وخارجياً براً وبحراً. إلا أنه لضمان هذا الاستقلال وتدعيمه يلفت الحاج علي زنيبر نظر السلطان مولاي عبد العزيز إلى ضرورة التريث في المصادقة على لوائحه، ويقترح عليه تأليف لجنة تنتخب من عيون متنوري الأمة لتقوم بفحص الاصلاحات التي أقرها المؤتمر المذكور، حتى إذا انهت الجمعية المغربية فحوصها وأعلنت عن رأيها

---

(21) محمد زنيبر: مجلة دار النيابة ـ المصدر السابق ذكره ـ ص19.

(22) اعتمدنا في هذا الباب على ما نشره الباحث محمد المنوني في كتابه: المظاهر ـ ص400. وما كتبه كذلك في مجلة دار النيابة المصدر السابق ذكره، وتحليل هذه النصوص التي قدمها الأستاذ محمد زنيبر في مجلة دار النيابة ـ المصدرين السابقين ذكرهما.

(23) يوجد نص هذا الدستور بكامله في كتاب: مظاهر يقظة المغرب الحديث ـ ملحق 67 ـ ص408. وفي مجلة دار النيابة يعطي نفس الكاتب نظرة عن هذا الدستور تحت عنوان: مشروع دستوري يقترحه الحاج علي زنيبر السلاوي ـ مجلة دار النيابة ـ النسة الأولى ـ العدد الرابع ـ خريف 1984م ـ من ص19 إلى 17.

في تلك المقررات، يأتي دور المصادقة الملكية على ما يجب العمل بمقتضاه.

أما كلمة الاحتلال فهي في نظره كلمة ينصرف مضمونها في أمور السياسة إلى وجود قوة غريبة بجهة كانت تتمتع بحرية الاستقلال، بصرف النظر عن متعلقاته، أوجدته ظروف الأحوال بطريق شرعي أولاً، فلذلك كان مكروهاً عند قوم آخرين، ولا فرق في المرارة بين ثمرة الاحتلال الأجنبي، وثمرة الاحتلال الوطني. ولذا يطالب صاحب المذكرة بلزوم اتخاذ كل الوسائل للقضاء على مقدمات الاحتلال، مع العمل على نهج سياسة قويمة إزاء الرعية. وليست القوة إلا في جانب قوم رضعوا ألبان معارف التحوطات الدفاعية والتجارب الهجومية بفطام النفوس عن حب الذات وترك الملذات. وينهي هذه المذكرة قائلاً: «. . . **وليس في ذكر ما صارت إليه حالة الجزائر وتونس وغيرهما من البلدان أدنى تعزية للنفس، أو فائدة يتمتع بها الحر إذا لم يقم بالواجب**».

مشروع الدستور المغربي لعلي زنيبر:

تناول المشروع في 31 فصلاً الإجراءات التي يجب على السلطات الحاكمة مباشرتها والقيام بها لمواجهة مشروع الاصلاحات التي أقرها مؤتمر الجزيرة الخضراء والتي يرى الفقيه علي زنيبر أنها ليست مطلقاً في صالح المغرب، حكومة وشعباً. من الأمور الأساسية التي تصدرت المشروع نظام الحكم المغربي، وشعارات الدولة المغربية ومظاهرها والعلاقة بين السلطان والرعية، وحماية الهوية المغربية والحفاظ على ثروات البلاد والعباد.

من الإجراءات التي يجب اتخاذها في المجالِ السياسي يقترح تشكيل مجلس للأمة ينتخب أعضاؤها من الأعيان المتنورين يرأسهم أفضلهم وتكون من مهامها الأساسية اتخاذ الوسائل الإصلاحية، وتعميم اصلحها في كل مصالح الحكومة براً وبحراً، جلباً للأمن والراحة، ودرءاً لكل فساد (الباب الأول).

- استعمال اللسان العربي، نطقاً وكتابة ـ في جميع دواوين الحكومة براً وبحراً، مع إدخال اللغة الأجنبية لضرورة الوقت، بشرط عدم انفرادها بشيء يخرجها عن سلطة الإجراءات العربية العمومية (الباب الثاني).

- وجوب سريان الأحكام المحلية على كل من بالقطر أو من في حكمه، بدون التفات لشريف أو وضيع، أو ثبوت التبعية لأية دولة أجنبية (الباب السادس).
- منع كل استبداد يقضي بعدم تمتع الراعي والرعية بثمرة وسائل العدل في كل حال (الباب الحادي عشر).
- وجوب المحافظة على مصالح الدول قدر محافظتهم على مصالح وحدة استقلال مملكة المغرب الأقصى، بدون إدخال ما يثني عزيمة الرعية عن الثقة برجال الحكومة وعزيزهم (الباب السادس والعشرون).
- اتخاذ التدابير اللازمة لإدخال فنون المعارف العصرية: من جهادية وغيرها وأنواع الصنائع الحديثة والفلاحة وما يزيد الأمة تقدماً في الأمور التجارية والاقتصادية (الفصل السابع والشعرون).
- وجوب إدخال الإصلاح في نفس مصالح الحكومة ليمكن تخصيص كل إدارة بما يليق بها، فإذا عضد المشروع كان الواجب على رجال الحكومة اتخاذ التدابير لتكوين حكومة منهم قادرة على دفع الطوارىء وجلب المنافع ووقاية الأوطان، وردع كل من يريده بسوء من إنس وجان (الباب الحادي والثلاثون).

لعل هذه الأفكار كانت متداولة في بعض البلدان العربية والإسلامية تعرف عليها صاحب المشروع، كما تعرف عليها باقي الفقهاء والعلماء المغاربة الذين زاروا هذه البلدان أو توقفوا بها. غير أن الجديد في كتابات الحاج علي زنيبر يتجلى في طريقة تقديم كتاباته السياسية والإصلاحية وفي عرضها بأسلوب عربي حديث تعمد فيه استعمال ألفاظ وعبارات لم تكن متداولة من قبل ولدى الفئات المتنورة المغربية: «... **فكتابة الحاج علي زنيبر تبرز بصورة ملحوظة التطور الذي طرأ على العربية المستعملة في المغرب، ولربما لأول مرة. إنه يستعمل لغة جديدة للتعبير عن أفكاره مختلفة عن اللغة التي كان يستعملها أبناء جيله. إنه يستعمل ألفاظاً من مثل: الاستقلال، والحرية، وموضوع، والدول العظام، والمندوبون، والمؤتمر، والصلح، الخ... وكلها ألفاظ غير قديمة في اللغة**

ولكنها أخذت معنى جديد في المجتمع المصري عن طريق الصحافة والتأليف الجديدة التي اطلع عليها الحاج علي وتمرّسَ بمدلولها»[24].

هل كان معاصروه من الفئات المتعلمة على درجة من الوعي السياسي لفهم أفكاره ودلالات العبارات الجديدة التي تتضمنها كتاباته الإصلاحية؟ **«... لو كان معاصروه على درجة من الوعي لاعتبروه من الرواد ومن دعاة التجديد ولاستقبلوه حين عودته من مصر بحفاوة وترحاب، ولكان له شأن آخر في بلده سواء بالنسبة للرسميين ورجال المحزن أم بالنسبة لعامة الناس»**[25].

4 ـ مذكرات محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (1874 ـ 1956م)[26]

ولد محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري بمدينة فاس في أكتوبر 1874 ودفن بمدينة الرباط سنة 1956. درس بجامعة القرويين وعيّن أستاذاً بها وعمره لا يتجاوز الخامسة والعشرين. ولمكانة الحجوي الأسرية والعلمية ألحق بحضرة السلطان عبد العزيز ليتولى عدة مهام حكومية. تعرف الحجوي على السلطة الحاكمة في المغرب من الداخل، ودرس رجالات حكومة هذه السلطة عن قرب بحيث يعتبره المفكرون والمؤرخون المغاربة (**المثقف المخزني النموذج**) الغزير الإنتاج، والداعية المتحمس الذي كان في الوقت ذاته موظفاً مخزنياً لمدة تربو على نصف القرن، كانت تتخللها فترات من احتراف التجارة والرحلات. هذا المثقف المخزني ركز دعوته إلى تحديث الدولة حسب مفهوم التحديث الذي يرمي إلى تأسيسه على الفكر السلفي الحديث في المغرب[27].

---

(24) محمد زنيبر ـ المصدر السابق ذكره ـ ص19.

(25) محمد زنيبر ـ المصدر السابق ذكره ـ ص18.

(26) محمد الصغير الخلوفي: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره مذكرة الفقيه محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي. تقديم الدكتور زكي مبارك ـ مطبعة المعارف ـ الرباط 1994. في مقدمة الكتاب ذكر الباحث مجموعة من المصادر والمراجع حول الرجل وفكره وأعماله.

(27) سعيد بن سعيد: المثقف المخزني وتحديث الدولة في المغرب ـ مجلة المستقبل العربي ـ عدد 58 ـ ديسمبر 1983م ـ ص27. وقد اتخذ الباحث الفقيه الحجوي كنموذج لهذا الفقيه من خلال كتاباته السياسية والإصلاحية.

الحجوي والمحاولات الإصلاحية للسلطان مولاي عبد العزيز (1894 ـ 1980م)

تابع الحجوي عن كثب المحاولات الإصلاحية الأولى التي أراد السلطان الشاب مولاي عبد العزيز إدخالها إلى البلاد بإيعاز من مجموعة من الأوروبيين الذين اتخذ منهم حاشيته، وإن لم يكونوا كلهم على درجة واحدة من الإخلاص له، لأن بعضاً منهم، بل أغلبهم، كانَ همهم الوحيد الغنى السريع وتركيز نفوذ بلدانهم على حساب باقي البلدان الأوروبية المتنافسة على المغرب. كما كان الحجوي يراقب من بعيد نشاط وسلوك بعض المغاربة من رجالات المخزن وتجاره الذين استغلوا ميل السلطان لتحديث الحياة المغربية فراحوا يزينون له فوائد الألعاب الميكانيكية والكهربائية الثمينة، وإدخال وسائل التسلية والترفيه للبلاط من مثل إقامة سباق الدراجات في حديقة القصر ممّا لم يكن يألفها المجتمع المغربي. هذه المستحدثات شوّهت فكرة التحديث في أعين الشعب وأضرت بسمعة السلطان ورجالات حكومته. وتزداد الهوة بين السلطان والشعب عندما أقر بإدخال إصلاحات على أجهزة الحكم كما أوصت بذلك الدول الأوروبية وفي طليعتها إنجلترا، إذ كان من رأيها تنظيم مؤسسة السلطان على غرار التاج البريطاني، والأخذ بنظام جديد للضرائب والجبايات، واستبدال العقوبات الجسدية العتيقة بما أخذ به من نظام قضائي جديد في هذا المضمار، وتخصيص مرتبات شهرية للولاة والقضاة وأعوان الحكومة عوضاً من ترك هؤلاء يعيشون على ما يحصلونه من مناصبهم ومواقعهم السلطوية من رواتب يتقاضونها مباشرة من المواطنين بدون تحديد لضوابطها. «... **وما ان شرعت حكومة السلطان عبد العزيز في تطبيق أولى هذه الإصلاحات حتى تعالت أصوات الشكوى، وتذمر القواد، لأن تحديد رواتب لهم تقطع عنهم سيل الأموال التي كانوا يأخذونها باسم ضرائب يوردونها للسلطان، وتمردت بعض القبائل، وتذمر الاشراف الذين لم يعد يشملهم الإعفاء الضريبي، واغتنمها بعض الانتهازيين فرصة للشغب والانتفاض على الدولة مما جعل موارد الخزينة المغربية تتضائل تضاؤلاً أحوج السلطان إلى الاقتراض من الدول الأوروبية، في وقت ارتفعت فيه**

تكاليف المعيشة اليومية في المدن، واستحكمت الضائقة في البوادي مما حرك شعور الكره بين المغاربة ضد الأجانب المقيمين بينهم، فاخذوا يشنون الهجومات عليهم»[28]. هذه الهجومات ضد الأجانب، وهذه الانتفاضات الشعبية ضد السلطان وهذه الاحتجاجات ضد الإصلاحات التي أدخلت على جهاز الجبايات والتي أضرت بمصالح الولاة وامتيازات رجالات الحكومة والأشراف، أدخلت المغرب في صراعات سياسية واجتماعية زعزعت أركان الدولة العزيزية. اغتنمت الدول الأوروبية هذه الأوضاع للتدخل عسكرياً في المغرب من أجل حماية مواطنيها وديبلوماسييها ورجال أعمالها للمحافظة على سلامتهم وممتلكاتهم. كما تدخلت عسكرياً من أجل إقرار الأمن وإعادة الطمأنينة في البلاد باسم المخزن ولفائدته. عن هذه الأوضاع كتب الحجوي مذكراته من بينها تلك التي تحمل عنوان: «**انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره..**» عن هذه المذكرة كتب صاحبها يقول: «**... هذه مذكرات لعبد ربه وأسير كسبه وجب علي إبرازها للوجود حيث الوقت كان مملوءاً بالحوادث العظمى... وقد رأيت بعض الناس كتبت في ذلك وبرزت كتاباته للعالم وفيها بعض أمور مخالفة لما عاينته، حيث قلد الغير ولم يشاهد ما شاهدته، والحقيقة التاريخية يتعين على كل مؤرخ أن ينصرها**»[29].

يشرح الحجوي أسباب فشل السلطان مولاي عبد العزيز في إدخال الإصلاحات الضرورية لتحديث المغرب قائلاً: «**... لم تكن للسلطان مولاي عبد العزيز معرفة تامة بأخلاق المغاربة، وما يجب في سياستهم، لكونه كان مغلوباً على أمره، غير ممارس ولا مباشر للأعمال بنفسه. ثم إن السبب الأعظم في الإنكسار فساد قلوب رعيته، واتهامهم له بالفسق والكفر حتى احتاج لجعل**

---

(28) أحمد عسة: المعجزة المغربية ـ دار القلم للطباعة ـ بيروت ـ 1975 ـ الطبعة الأولى ـ ص144، 145، 146.

(29) اعتمدنا الدراسة التي أنجزها الأستاذ الخلوفي حول هذه المذكرة كما اعتمدنا الدراسة الثانية عن هذه المذكرة التي تحمل عنوان: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره: دعاوي الإصلاح والتنظيم. وقد قدمت شخصياً هذه الدراسة وترجمتها من اللغة العربية إلى الفرنسية.

محضر كتب فيه علماء فاس إشهاداً لمعاينتهم له يصلي التراويح ليلة سابع وعشرين رمضان، معترفين بوجوب طاعته التي كانت في أعناق الأمة. كان السلطان مولعاً بركوب الدراجة ولم يكن موجوداً في المغرب فعدوه كفراً. كما انه صبغ جدران قصره بالنيلة فعدوه كفراً لأنهم كانوا لا يرون ذلك إلا في دور اليهود، ولم يكن المسلمون يعملون ألواناً في جدرانهم إلا البياض فعدوا كل من خالف مألوفهم كفراً وجهلاً. . . وبالجملة رعية جاهلة بسيطة الفكر».

مقترحات الحجوي الإصلاحية الموجهة للسلطان مولاي عبد الحفيظ (1908 ـ 1912م)

يأسف الحجوي أسفاً عميقاً لنهاية الدولة العزيزية، ويتأسف على عدم نجاح السلطان في إدخلال الإصلاحات للبلاد. ولما بويع السلطان مولاي عبد الحفيظ وجه إليه الحجوي خطاباً تضمن أراءه الإصلاحية في المؤسسة السلطانية، والمرافق الحكومية، والجهاز الإداري، وقطاع التعليم والسياسة الخارجية.

المؤسسة السلطانية: بروز السلطان

يرى الحجوي ان مكانة السلطان داخل هذه الإصلاحات هي المحور والدور الأساسي موضحاً مهامه في تحديث الدولة المغربية. وفي هذا الصدد يقول الحجوي: «. . . هذه الأحوال وما وصلنا إليه من ارتباكات والاختلال، وتطلب الخلاص من هذا البحر المظلم، فلا تجد سفينة ولا منجاة إلا بشيء واحد، وهو بروز مولانا أيده الله لعيان رعيته، والتحبب إليها بالبحث عن الحقوق الضائعة والضرب على أيدي الظلمة، وسهره الليل والنهار على ذلك، وهجر كل لذة، وتعهد مجالس القضاة والعمال والمحتسبين، وحضهم على العدل والمساواة بين العباد في الحقوق والضرائب وغيرها، وحسم مردة الزور، وانتهاز الحقوق ممن يخالف ذلك، وسماع شكاوي المظلومين، وتخفيف آلام البائسين، والبحث في أمور الخزينة والأحباس. على السلطان ان يقوم بإحصاء

الشاذة والفاذة ليتوفر لديه ما يقيم به أود الجيش مع الانتشار الشديد للجيش وتنظيمه على النسق الأوروبي، وتوفير معداته من أكل وشرب وخيام، وتحسين مسكنه وفراشه إلى غير ذلك، ويتفقد معاهد العلم والعلماء، ويرتب مجالس العلم بما يناسب الحال والوقت ويقدم للتعليم من يستحقه وينشطه برفع درجته، ويرتب الكتاتيب أعني المسائد على نسق تكون أشبه بمدارس ابتدائية وينقحها من المعلمين الجهلة. . . وبناء مدرسة جامعة لتلقن المعارف الوقتية المفقودة من المغرب مع اضطراره إليها ولو بتحويل بعض المدارس المعطلة».

المرافق الحكومية ومسؤولية الموظفين فيها.

«. . . على السلطان أن يجعل كل وزارة مستقلة في نفسها، قائمة بموظفيها ويجعل لها من الموظفين والأعوان والكتاب والأقسام ما يقوم بسببه بأشغال أُلْقِيَ له بعهدتها، لتجري الاشغال على نسق دائم فلا تتعذر المصالح ولا تضيع الحقوق، حتى لا تقع واقعة إلا ويقابلها من هو في وظيفته بكل استطاعة واطمئنان، ولا تضيع فرصتها في الوقت المناسب لها، ويكون مولانا قد علم وقوعها في وقتها، وعلم كيفية مباشرتها على الوجه المطلوب مع راحته، وعدم مشقة موظفيه، فتقل الشكاوى، وتضمحل الدعاوى، وتنعدم المظالم» على السلطان ان «. . . ينظم إدارته فيختار لها الأمثل من الموظفين الأكفاء ويحد لكل موظف سلطته، ويخوله التفويض فيها، ويلقي عهدتها عليه ويجعل عليه المراقبة الشديدة في أعماله، ويكون مولانا أيده الله مراقباً على الكل وفياً. ويتساءل الحجوي عن فعالية هذه المقترحات فيجيب بأن كل دولة يقع فيها تضعضع لا يمكن تداركه إلا بهذه الإصلاحات التي لا ينفع فيها مال على كثرته ولا جيش على خدمته. «. . . وهكذا فإن الدول الأوروبية والأمريكية واليابان إنما نهضت من سباتها ووصلت إلى ما وصلت إليه بتنظيم إدارتها، واحترام الحقوق وضبط الأموال وتدريب الجيوش، ونشر العلوم والمعارف، ففي التاريخ القديم والجديد عبرة وذكرى»

الأوضاع الداخلية وضرورة معالجتها:

يرى الحجوي ان الوضعية أصبحت من الصعب السكوت عنها حيث جالت الأيدي الضاربة في أشلاء الأمة الفقيرة والضعيفة، فمزقت أحشاءها وفرقت كلمتها وبغضت أميرها إليها، كل هذا بسبب الظلم الفادح واللعب بالرقاب والدماء، وبيع الوظائف جهاراً. أما عن الحالة العلمية التي يرى الحجوي انها أساس تقدم الأمم ومقياس رقيها فبعدما كان العرب والمسلمون أساتذة لأوروبا صاروا اليوم أقل درجة من التلميذ. فالمؤسسات التعليمية بالمغرب بما فيها جامعة القروين لا تقاس بما يوجد في مصر وتونس فضلاً عن البلاد الأوروبية.

الأوضاع الداخلية وضرورة معالجتها. أما عن المستوى الخارجي فيرى الحجوي أن أوروبا احكمت الخناق على المغرب بموجب المعاهدات التي أبرمها معها، والامتيازات التي حصلت عليها بموجب هذه الاتفاقيات. وعن هذا الموضوع يوضح الحجوي: «... **وهكذا عقدت الأوقاف المجحفة للحقوق وباستقلال البلاد والقروض العظيمة باسم الأمة، والأمة لا علم لها ولا رأي. وأعطيت المشاريع الكبرى للأجانب الذين لم يكونوا يحلمون بنيل أقل جزء منها فصارت لهم مهذاة... فمن له مسك من عقل أو طرف من غيره، أو وطنية يتأمل الاتفاقات**». ويختم الحجوي مذكرته بتوجيه نصيحة إلى السلطان جاء فيها: «... **وليقم السلطان بما أوجب الله عليه لأمته خير قيام، وليشد على التمسك لاستجلاب قلوب رعيته بالعدل والإنصاف... وإياك ان تصغي لمن يشيرُ عليك بمعاندة الأمة، وحملها على الرضى للظلم والاستبداد، فإنما يريد استئصال ما لديك**».

ترك الحجوي آثاراً علمية مهمة تزيد على المائة بين مخطوط ومطبوع أهمها على الإطلاق (**الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**) في أربعة أجزاء معتمد تدريسها بالجامعات المغربية والإسلامية الكبرى. وما يميز الحجوي عن غيره من دعاة الإصلاح والتجديد والتحديث في المغرب جرأته وتحررُه الفكري واستقلاله المالي عن المخزن. هذه الخاصيات جعلت المؤرخ المغربي عبد الله

العروي يقول عنه: «... **إنه صاحب فكر حر. كانت لديه رغبة أكيدة وإرادة قوية للدفاع عن مكتسبات الحضارة العربية الإسلامية، ولهذا فإن مؤلفاته كثيراً ما اعتمد عليها الوطنيون لمواجهة الفكر الاستعماري الاستيطاني والثقافي والرد على أطروحاته**»[30].

II ـ الرحلة إلى الغرب:
الوعي بالتفاوت وتفوق حضارة الغرب الحديثة

الرحلة إلى الغرب، أو بالمفهوم المغربي: **الرحلة السفارية** تكون الغاية من سفر صاحبها القيام بمهمة ديبلوماسية لدى دولة أجنبية، وتكون أحياناً من إنشاء السفير نفسه، إن كان في نفس الوقت من رجال الأدب والعلم وأحياناً أخرى يقوم بتأليفها أحد الكتاب المخزنيين الذين رافقوا السفير. وكلمة سفير مأخوذة من السفارة بمعنى إصلاح ذات البين بين الناس كما أجمعت عليه معاجم اللغة العربية، وهي مشتقة من سفر كعرف أو أسفر كأكرم وليس من السفر بمعنى الرحيل[31].

هذا النوع من الرحلات سيعرف في مغرب منتصف القرن التاسع عشر وإلى نهايته نشاطاً مكثفاً وملحوظاً عندما بلغت التحديات الأوروبية أوجها على إثر احتلال فرنسا للبلاد الجزائرية سنة 1830م، وتوقف جيوشها الاستعمارية على عتبة المغرب تنتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليه. هذه الفرصة هي معركة إيسلي (1845م) التي انتهت بانهزام شنيع للقوات المغربية التقليدية أمام القوات الفرنسية المحكمة التسيير والتدبير والتدريب، المتوفرة على آليات حربية من باكورة إنتاج الفكر الأوروبي الحديث الذي أشعل فتيل الثورة الصناعية والتقدم العلمي. وتأتي الحرب الإسبانية المغربية التي مكنت القوات الإسبانية من

---

(30) عبد الله العروي: الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية ـ 1830 ـ 1912م ـ ماسبيرو ـ 1992م ـ ص115 ـ 121 (الكاتب باللغة الفرنسية).

(31) عبد الهادي التازي: التاريخ الديبلوماسي للمغرب ـ المجلد الأول ـ مطبعة فضالة ـ المحمدية ـ المغرب ـ 1986م ـ ص179.

احتلال مدينة تطوان في شمال المغرب سنة 1860م، وشرع الإسبان في تغيير معالمها الحضارية والإسلامية إلى كنائس ومؤسسات خيرية للتبشير والتنصير ليذكر هذا الاحتلال بما كانت تصبوا إلى تحقيقيه الحروب الصليبية. عن هذا الحدث كتب المؤرخ المغربي خالد النصاري: «... **ووقعة تطاوين هذه هي التي أزلت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب، واستطال النصارى بها، وانكسر المسلمون انكساراً لم يعهد له مثله وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة**»[32]. أما المؤرخ عبد الله العروي فيعلق على هذه الحرب واستيلاء الإسبان على مدينة تطوان فيقول: «... **كل شيء في هذه الحرب يرمز إلى أزمة الدولة والمجتمع في القرن التاسع عشر. ففي نظر المؤرخين المغاربة المعاصرين كانت حرب تطوان تقرع أجراس الأسى على أحلام المغرب. لم يعد في نظر هؤلاء ممكناً ان تجري حرب حقيقية مع الدول الكبرى لأن التفاوت صار عظيماً**»[33]. وكما حدث في المشرق العربي حيث لم تبدأ بوادر الوعي النهضوي الحديث في التبلور والتشكل إلا بعد الاصطدام مع الحضارة الغربية الحديثة بفعل حملة نابليون على مصر؛ فقد حدث نفس الشيء في المغرب حيث لم يبدأ التساؤل، على مستوى الحكام والفئات الواعية عن أسباب هزائم الجيش المغربي إلا بعد أن اصطدم الوعي المغربي بصدمة التفوق الأوروبي. «... **ومنذ هذه الساعة انتبه المغاربة إلى أن أنظمتهم العتيقة في الجيش وأجهزة الحكم وآلياته المختلفة لم تعد مجدية إزاء التقدم الأوروبي الحديث، وتكون في نفوس القادة والنخبة المتنورة شعورهم بالحاجة والتجدد وانتحال وسائل النهوض**»[34].

---

(32) خالد الناصري: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ـ الجزء التاسع ـ دار الكتاب ـ الدار البيضاء ـ 1956 ـ ص101.

(33) عبد الله العروي: تاريخ المغرب، محاولة في التركيب ـ (باللغة الفرنسية) ترجمه إلى الغربية ذوقان قرطوط ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ 1977 ـ ص250.

(34) محمد عابد الجابري: الأصالة والتحديث في المغرب ـ مجلة الثقافة، الجزائرية ـ السنة الثالثة عشرة ـ العدد 77 ـ سبتمبر 1983 ـ ص55 إلى 92.

اقتنع الحكام المغاربة بأن أية مواجهة عسكرية في البر أو البحر مع الدول الاستعمارية: فرنسا، انجلترا، إسبانيا، ألمانيا، لن تكون مجدية، ولا يمكن مطلقاً التفكير فيها أو التعويل عليها لضمان استقلال البلاد والحفاظ على ما تبقى من كيان الدولة المغربية وسيادتها. من هذا الوعي لجأ الحكام المغاربة إلى اعتماد العمل الديبلوسي كسلاح بديل لإذكاء روح التنافس بين هذه الدول كوسيلة لمواجهة طموحاتها. وهذا ما يفسر النشاط المكثف لهذا العمل الديبلوماسي من سنة 1845م إلى 1906م. خلال هذه الحقبة وجه الحكام المغاربة الذين تعاقبوا على الحكم خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب الحرجة عدة بعثات ديبلوماسية إلى فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والفاتكان[35]. من مهام هذه البعثات الديبلوماسية تقديم رسائل إلى الحكام الأوروبيين تذكرهم بمضمون المواثيق والمعاهدات التي أبرمها المغرب مع بلدانهم. كما كانوا يقترحون عليهم تجديد هذه المواثيق وتنشيط مجال التعاون بين المغرب المستقل وهذه البلدان ذات التوجهات والطموحات الإستعمارية. بجانب هذه المهمة الديبلوماسية كان على السفراء أو كتابهم تدوين تقارير حول البلدان المزارة مسجلين الجديد والغريب والنافع من المؤسسات والعادات التي بفضلها أصبح الأوروبيون على هذا الجانب من القوة والغلبة[36] وذلك قصد تقديمها لأصحاب الحل والعقد لإستفادة منها والإسترشاد بها للقيام بالخطوات والمبادرات الإصلاحية التي تفرضها تقلبات الأحوال، وتحث عليها العقول المتنورة والمتفتحة في كل من المغرب والبلدان العربية والإسلامية. فما هي أوجه الانتفاع من الرحلات السفارية إلى الغرب وما مدى مساهمتها في خلق تيار فكري نهضوي في مغرب منتصف القرن التاسع عشر، وكيف عبر السفراء

(35) عبد العزيز بن عبد الله: السفارات والسفراء بالمغرب عبر التاريخ ـ المعهد الوطني للدراسات القضائية ـ الرباط ـ مطبعة الساحل ـ 1985م.

(36) عبد السلام حيمر: المغرب: الإسلام والحداثة الكاتب المخزني ـ مطبعة سوندي ـ مكناس ـ 1997م ـ ص18و19.

المغاربة أو كتابهم عن هذا الوعي؟ من الرحلات السفارية التي سنعتمدها في هذا الباب:

- رحلة السفير إدريس ابن إدريس العمراوي إلى فرنسا (يونيو 1860م).
- رحلة الكاتب أحمد الكردودي إلى إسبانيا (نوفمبر 1885م)
- رحلة الفقيه الحسن الغسان إلى لندن (يونيو 1902م).

1 ـ رحلة السفير إدريس بن إدريس العمراوي[37]

الحاج إدريس بن عبد الله بن إدريس العمراوي أصله من مراكش الحمراء وللرباط كان مآله ومغرب شمسه. استفاد ابن إدريس من مكانة أبيه العلمية والوظيفية إذ كان وزيراً في حكومة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام لينكب الابن على الدراسة والتحصيل. سافر إلى الحج وتوقف بمصر، شأنه في ذلك شأن كل الفقهاء والعلماء المغاربة الذين يتوجهون إلى المشرق العربي كما أشرنا إلى ذلك. خلال مقامه بالقاهرة اتصل ابن إدريس بعلمائها وأدبائها من رواد النهضة العربية الحديثة، فاطلع على أولى مؤلفاتهم ومن بينها طبعاً رحلة رفاعة الطهطاوي (**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**) التي تأثر بها السفير المغربي شكلاً ومضموناً عندما دون رحلته السفارية إلى فرنسا والتي أسماها: (**تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**).

لما عاد السفير إلى المغرب عينه السلطان مولاي عبد الرحمان كاتباً في صفوف المحزن، وبعد تولية السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن (1859م ـ 1873م) اتخذه كاتباً له، وكلفه بمهمتين سفاريتين الأولى إلى إسبانيا والثانية إلى فرنسا. عن هذه الرحلة الأخيرة ترك لنا ابن إدريس تقريراً يحمل عنوان: (**تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**) دَوَّنَ فيه كل ما شاهده وسمعه ولاحظه خلال إقامته

(37) قمنا بدراسة وتحليل ونشر وترجمة هذه الرحلة من اللغة العربية إلى الفرنسية. وفي المقدمة والحواشي أشرنا إلى كل الجوانب المتعلقة بالسفير وحياته ونشاطه والمصادر التي تعطي معلومات عنه. أنظر زكي مبارك: من أدب الرحلات. على نص الرحلة اعتمدنا فأخذنا منها فقرات التي احتوتها هذه الدراسة.

بالديار الفرنسية من 17 يوليوز 1860م إلى غاية 2 غشت 1860م، أي مدة أربعين يوماً. وبالرغم من قصر هذه المدة فقد تمكن السفير من التغلغل في الأوساط المجتمعية الفرنسية والتعرف على جوانبها المختلفة. تطرق ابن إدريس إلى عالم التجارة، والاقتصاد، والفكر، والتعليم. كما أعطانا فكرة واضحة عن أهم المؤسسات الحكومية موضحاً وظائفها وتنظيماتها وفوائدها. ومن الجوانب التي استرعت انتباهه:

دار الطباعة والكتب:

«... هي دار كبيرة أكبر من دار الضرب بكثير وخدماتها أكثر عدداً منها. وفيها أيضاً الالة التي تحرك بالبخار وسطها، وفيها أقلام عديدة ولغات كثيرة يطبع بها ما يريده الإنسان بأي قلم شاء وبأي لغة أراد. رأينا فيها الخط العربي على نوعين، الخط المبسوط الأندلسي مكتوب به أول سورة البقرة في غاية ما يكون من الإتقان والجودة، والخط الآخر المركب، وخط أهل الواسطة، والخط الكوفي والتركي والمصري والعجمي إلى غير ذلك من خطوط الأمم من الهند والصين والإفرنج... وقد كنت وقفت في خزانة مولانا أمير المؤمنين قدسه الله على كناش كبير مجلوب من هذا المحل فيه جميع أمثلة الخطوط التي تطبع في هذه المطبعة التي هي فوق جميع مطابع الأرض، وهي تقدر ان تخرج أفكار الناس بكل اللغات والأوراق، وهي تحيا بقوتها بلا ثقل عن بيت المال وتطبع فيها الشرائع كلها غير ذلك. وهذه الالة التي اتخذوها للطبع هي في كل الأمور عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم وأثرها في ذلك ظاهر ومعلوم. وقد اتخذوها في جميع بلادالإسلام واغتبط بها مشاهر العلماء والأعلام ويكفيك من شرف وحسن موقعها رخص الكتب التي تطبع بها... ونطلب من الله بوجود مولانا أمير المؤمنين ان يكمل محاسن مغربنا لمثل هذه المطبعة ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة».

عن دار الكتب يقول السفير: **«... إنها مشحونة بكتب جميع الأديان واللغات حتى كتب اليهود. فيها كثير من كتب الإسلام مما كانوا جلبوه من**

خزانة مصر والاسكندرية لما تغلبوا عليهما ومما جلبه ملوكهم من البلاد. وقد ذكر لي الترجمان الذي كان معنا أسماء كتب عديدة غريبة من كتب التواريخ والفقه والحديث واللغة والتفسير مما هو عندهم. وهناك مما نسمعه ولم نره، ولم نسمعه ولم نره. ذكر لي من أسماء كتب تواريخ المغرب سبعة أسماء لم نعرف منها أحداً. ومنها المغرب عن ممالك المغرب، والإحاطة بأخبار غرناطة... أخبرونا ان من جملة ما عندهم في هذه الخزينة مصحف صغير الجرم مكتوب بالخط الكوفي أهداه هارون الرشيد العباسي لملكهم المعاصر له ومعه سفرة شطرنج من العاج عظيمة القطع مكتوب أسفل الرخ منها هذا ما صنعه لأمير المؤمنين هارون الرشيد المعلم فلان ذكر لي اسمه ونسيته ومكانة (ساعة) تخدم بالماء وغير ذلك، واستغربت كون هارون الرشيد يهدي لملكهم المصحف مع مكانته في الدين المشهورة وهمته السامية المسطورة مع ان الإسلام في ذلك الوقت في عنفوان الشباب، والكفر في غاية الهوان، ولعل هذا من افتراءاتهم وزخارفهم التي يموهون فيها ادّعاءاتهم».

الكومديات والغناء والرقص والهزليات

«... هي عبارة عن محال عندهم يلعبون فيها بأنواع من اللعب في ركوب الخيل وطيران الهواء وقلب الأعيان والغناء والرقص وحكايات الأخبار والأشعار بلغتهم، والمحاجات والأسئلة والأجوبة. وهذه مسائل هزليات لكنهم مغرمون بها كل الغرام، ومولعون بها كل الولوع. وكنت أضحك من ذلك وأعده من جملة المزاح الذي لا يعبأ به ولا يؤبه له، وأنه ليس من الجد في شيء حتى وقفت على كلام الشيخ رفاعة المصري في رحلته. حاصله إنها أمور جدية في صفة الهزل».

المرأة الفرنسية بأعين السفير ابن إدريس

«... وطاعة النصارى لنسوانهم ومبالغتهم في اتباع مرادهن أشهر من أن تذكر. ويقولون ان لهذه المدينة زيادة في ذلك حتى انهم يقولون في أمثالهم باريز جنة النساء وجهنم الخيل. والمرأة هي رئيسة البيت والرجل تابع لها حتى ان من

دخل عندهم بيت أحد قاد به أن يقدم السلام على المرأة قبل زوجها وهي التي تقابل الضيوف وتكلمهم وترحب بهم سواء كانوا رجالاً أو نساء. والرجل ساع في طاعتها ممتثل لأمرها متأدب معها بأحسن الآداب لا يخالفها في شيء ومن كان بخلاف ذلك عدوه أوباش الناس وسفهائهم مع قِلَّةِ العفة فيهن. فقد بلغنا أن جلهن يتعاطين الفواحش، والغيرة في أزواجهن نادرة جداً. فيرى رجل زوجته آخذة بيد رجل آخر ذاهبة معه تتحدث في الخلا والملأ، فلا ينكر عليها ذلك وربما وجه بعضهم زوجته مع جاره أو صاحبه لمتنزه أو فرجة إن كان له هو شغل ولا يقدر ان يذكرها بشيء من ذلك ولا يسمها به ولو سمعه عنها. وعندهم لذلك قوانين وأحكام مرتبة... وعوائدهم في هذا الباب يثقل سماعها على الآذان ولا يجمل بالأديب ذكرها في السر ولا في الإعلان، وإنما أشرنا إلى هذه النبذة منها تنبيهاً للعاقل وتنكيتاً للجاهل».

التجارة والتجار ودور البيع في باريز

«... وأكثر تكسب أهل هذه المدينة من التجارة. والتجار عندهم معتبرون اعتباراً زائداً وهم ركن من أركان الدولة. وكلما زاد مال الرجل عندهم ونجحت تجارتهم كان أرفع منزلة وأعظم مكانة والعكس بالعكس. ويذمون الباطل عندهم ذماً بليغاً ويتهاجون بالباطل. وقد بلغنا ان لهم داراً يتعلمون فيها كيفية التجارة كما يتعلمون الكتابة والحساب وغير ذلك فيدفع الرجل ولده لذلك الدار على جعل سنوي يعطيه عليه ومن لم يكن له مال فالمخزن يؤدي عنه. ولهم دار يجتمع فيها التجار ساعة في كل يوم يتعاطون فيها أخبار السلع النافذة والكاسدة وأخبار السكك وكيفية رواجها في البلدان واختيار الفابريكات والكونترادات وغير ذلك. واعتناء دولتهم بأمور التجارة كبير وذلك لأن مستفاداتهم جلها منهم. فكلما صلحت تجارتهم كثر الدخل على خزانتهم وكل ما بين النصارى من طرق الحديد وأخبار السلك ومراكب وغير ذلك فالتجار هم الذين يقومون به والمخزن إنما يشد عضدهم ويعينهم بالكلمة لا غير. فأما دكاكين التجارة عندهم بباريز فشيء من وراء العقول سلعها مرتبة ترتيباً جيداً تزينها في أعين الناظرين، ويرتبون السلع في أبواب الحوانيت ويجعلون وراءها الزجاج ويوقدون داخل

الحانوت وخارجها الضوء الكثير فتظهر لذلك بهرجة تحمل الناظر على عشق تلك السلعة والتغالي في ثمنها. ولهم سعة أخلاق عند البيع وأدب في المعاملة فيدخل أطراف الناس بحانوت التاجر الكبير ويسأله عن سلع متعددة ويقول له: أريد أن أرى كذا وكذا بكل ما يطلبه منه أو يأمر الخادم بالإتيان بذلك ولا يضجر منه ولو بقي ما بقي. فإن توافق معه على شيء اشتراه منه وإلا فيقول له سامحني، فيجيبه بانك لم تفعل معي ما يثقل علي حتى تطلب مني المسامحة أو ما هذا معناه ويذهب لحال سبله».

الصحافة اليومية ودورها في المجتمع الفرنسي:

«... يسمونها أيضاً الجرنالات والكازيطات. وكيفيتها ان لهم داراً يكتبون فيها أخبار ما يقع في العالم كله بحسب ما يروج سماعه من حروب ومهادنات ونوادر وما يتعلق بالدول وما عزمت عليه وما ينبغي أن يكون في الوقت بحسب ما يظهر لهم، ويذكرون فيها السلع التي تباع وأسوامها وما هو نافذ وما هو كاسد متوسط وما طلع ناقصاً وما طلع كاملاً والدور التي تباع أو تكرى والأرضون والأجنات والحوانيت. ويذكرون من أفلس من التجار وسبب فلسه وغير ذلك. والناس المعتبرون عندهم يرتبونها بأن يأتيهم بها خادم تلك الدار بكازطة في كل يوم إلى محله على ان يعطي في السنة خرجاً معلوماً فيقرأها فيعلم خبر الدنيا كلها قبل ان يخرج من داره. فإن كانت عنده سلعة مطلوبة باعها أو عنَّ كان له غرض في كراء دار أو شراءها عرفه من هناك. وسائر الناس يشترونها من حوانيت معدة لبيعها في كل سوق وهي صنفان: صنف يصدر بإذن الدولة ولا تعلق له بالتجارة وإنما هو ترغيبات وترهيبات وتحريضات وتسهيلات وأعذار عن أمور صدرت وتمهيدات لأمور أرادوا إحداثها وتحسينات لأمور أنكرها بعض الناس وإظهار وجهها وغير ذلك... وذكروا لنا ان الوزراء الذين يكون الكلام عنهم في ذلك يكونون في تعب كبير في الأجوبة عما يلقى عليهم فيها وربما عزلوا الحكام والوزراء بسبب ما يظهر من زلات ومعائبهم، فيها ولها أثر كبير في السياسة والتجارة. وكل من تأمل ما ذكرناه من حالها وموضوعها يستحسنها ويعرف قدر نفعها ولا تسأل عن عورات تفضحها ومساوي تبديها ومهاوي تنبه

عن الوقوع فيها. . . ولقد أحدثوا نوعاً منها باللسان العربي يخرج على رأس كل خمسة عشر يوماً يذكرون فيه لب ما تضمنته تلك، وكانوا يأتوننا منه بنسخة عند خروجنا فكنا نرى فيها العجب وكنا نعرف خبر العلم وحقائق البلدان وتفاصيل دولهم وغير ذلك ونحن في البيوت».

الجيش الفرنسي والجيش المغربي: أوجه المقارنة والتفاوت:

عاش السفير ابن إدريس هزيمة الجيش المغربي في معركة تطوان، وعاش احتلال هذه المدينة من طرف السلطات الإسبانية وما قاموا به من أعمال ضرت بمظاهر الحضارة العربية الإسلامية. وها هو اليوم يتفقد الجيوش الفرنسية في باريز، زيارة رسمية ومقصودة. يقارن ابن إدريس الجيش المغربي والجيش الفرنسي فيقول: «. . . **أما قاعدتهم في ضبطه فقرروا أحكاماً ككل جريمة تجري على فاعلها حتماً، وقطعوا الطمع على أن يتولى أحد مرتبة فيه برشوة أو قربة. ولم يطلقوا للمتولين اليد في العسكر بالتعدي والضرب والسجن، ولا بأخذ شيء من مرتبهم. فما يحدث في قلوب العسكر حنق عليه حتى يطلبوا بعزله وولاية غيره، ولذلك وقف كل عند حده فآمنوا بوائقه وفتنه».**

2 ـ رحلة الكاتب أحمد الكردودي إلى إسبانيا (نوفمبر 1885م)[38]

في 26 دسنبر 1884م احتلت إسبانيا رأس بوجدور بالصحراء المغربية وفرضتْ على قبائل هذه المنطقة حمايتها وسيطرتها. في الحين وجهت

(38) حقق الرحلة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ونشرها ضمن مطبوعات القصر الملكي الرباط ـ 1963م. من الباحثين الذين درسوا هذه الرحلة الأساتذة: سعيد بن سيعد العلوي: أوروبا في مرآة الرحلة. وعبد السلام حيمر: صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية المغربية إلى أوروبا. مجلة بصمات عدد خاص حول: الخطاب النهضوي بالمغرب. العدد الخامس ـ كلية الآداب بن امسيك الدار البيضاء ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ 1990م. كما تناول هذه الرحلة الدكتور عبد الهادي التازي: التاريخ الديبلوماسي للمغرب. المجلد الأول والعاشر. والدكتور عبد المجيد القدوري في كتابه: سفراء مغاربة في أوروبا. المصدر السابق ذكره. عن هذه المراجع اعتمدنا لإنجاز ما يتعلق برحلة السفير الكردودي.

السلطات الحاكمة في مدريد منشوراً إلى الدول الأجنبية تعلن فيه احتلالها لهذه المنطقة من التراب المغربي. وما ان علم الحكام المغاربة بهذا الحدث حتى قاموا يواجهونه بالأسلوب الديبلوماسي المعتاد. وضمن هذا التوجه وجه السلطان الحسن الأول بعثة ديبلوماسية إلى الملك الإسباني ألفونس الثاني عشر. السفارة كانت برئاسة السيد عبد الصادق الريفي يصاحبه أمين سره أحمد الكردودي. عن هذه الرحلة السفارية إلى إسبانيا دون الكردودي رحلة سماها «**التحفة السّنية للحضرة الحسنية بالمملكة الإسبنيولية**» والمقصود بالحضرة السّنية السلطان مولاي الحسن الأول (1873 ـ 1894م) وعلى غرار سابقيه تعرض الكردودي في رحلته إلى الحياة العامة في إسبانيا في عهد الملك ألفونس الثاني عشر. ومما استرعى انتباهه:

نظام تولية الحكم وولاية العهد:

لاحظ السفير عدم وقوع فتن بعد وفاة الملك يوم 18 فبراير 1885م. واندهش الكردودي اندهاشاً كبيراً لهذا، فحاول فهم السباب التي حالت دون وقوع فتن وصراعات على الحكم وهو يستحضر طبعاً المغرب في مثل هذه الظروفئ يفسر السفير هذه الاسباب قائلاً: «... **لم يصدر بينهم شيء مما ظنناه، بل بقي أمرهم على حاله... ولم يختلف أحد منهم في شيء. فأول ما فعلوه هو تأخير الوزراء وتعين غيرهم، ثم الاتفاق على من يتولى أمر ملكهم. وبعد تمام الأمر وإبرامه لتأسيس الملك وأحكامه، أشاعوا ذلك في ورقات أخبارهم وأخبروا بمن ولي السلطنة والوزارة منهم، ولم ينقل لنا عن أحد منهم انه خالف في ذلك ولا أنكره، بل جميعهم امتثل وأذعن لذلك وقبل واعترف**»[39] أما عن تولية العهد فقد تتم حسب ما أورده السفير حسب الطريقة الآتية:

«... **فإذا كان ولي العهد صغير السن فيسند الأمز إلى ا لأم الحاضنة حتى**

(39) عبد المجيد القدوري: سفراء مغاربة في أوروبا 1610 ـ 1922م ـ المصدر السابق ذكره ص35 ـ 36.

يبلغ سن الرشد، وإذا لم يكن الأمير ولداً يرجع العرش لأكبر بنات المتوفى، مع العلم ان الوزراء يتكلفون بتسيير شؤون المملكة، وليس على متولي الملك إلا الإمضاء»[40].

وعي السفير بالأطماع الأوروبية:

يرى السفير بأن هذه الأطماع أصبحت واضحة بعد أن احتلت بعض الدول الأوروبية الجزائر وتونس ومصر. أما بالنسبة للمغرب فهي تبحث عن الأسباب وتختلق المناورات لتبرير تدخلها في شؤونه الداخلية كمقدمات لاحتلاله عسكرياً. بهذا المعنى كتب: «... **واشتدت شوكتهم في هذا العصر، صاروا يجعلون لما يريدونه اسباباً يرتكبونها وأموراً يريدونها ويدبرونها وعليه تعين على من جاورهم من أهل الإسلام أن يكونوا من أمرهم على بال، وأن لا يرتكبوا ما يوذن بالتواني والانحلال، بل يسارعُ إلى مزيد من الأهبة والاستعداد بما يقمع الكفرة ويأمن البلاد»**[41].

الكردودي والمآثر الإسلامية في الأندلس

لقد دخل الكردودي في اتصال مع المآثر الإسلامية التي ما زالت قائمة في الأندلس، وما زالت هذه المعالم شاهدة على وجود ماضٍ إسلامي مجيد، وحاضر ملعون بسبب ما يعاني منه المغاربة من ضغوط وويلات أوروبية. تألم الكردودي لما آلت إليه هذه الأمور وازداد ألمه عندما رأى المآثر الإسلامية قد تحولت إلى كنائس فصرخ من منطلق الفقيه ومن منطق المؤمن الرافض لطمس هذه المعالم الإسلامية واستبدالها بمؤسسات الكفر والبهتان. عبر الكردودي عن هذه المشارع والآلام بالعبارات التالية: «... **وقد أداهم كفرهم إلى جعل صور كصور الآدميين لها أجنحة يزعمون انها صور الملائكة، كما جعلوا صورة زعموا انها صورة آدم عليه السلام، عاري الجسد إلا عورته مستورة بشبه أوراق الشجر،**

---

(40) عبد المجيد القدوري: المصدر السابق ص96 ـ 97.

(41) عبد المجيد القدوري: المصدر السابق ص98.

وأخرى يزعمون انها صورة حواء، وغير ذلك كصور مريم وعيسى رضيعاً وشاباً وقتيلاً. وقد ضقنا ذرعاً حيث رأينا ما رأينا من استيلاء الكفار على أماكن المسلمين وشاهدنا من تصرفات الأقدار من نقلها إلى أيدي الكفار فليبك الباكون عليها من غير حصر ولا عد»[42].

3 ـ رحلة الحسن بن محمد الغسال إلى لندن (يونيو 1902م)[43]

بمناسبة تولي الملك إدوارد السابع العاهل البريطاني الجديد بعث السلطان مولاي عبد العزيز في يونيو 1902 بسفارة لتهنئته، برئاسة باشا مدينة فاس القائد عبد الرحمان بن عبد الصادق الريفي وعضوية الكاتب الحسن بن محمد الغسال. عن هذه المهمة السفارية إلى لندن دون الكاتب الغسال رحلة نشرها الدكتور عبد الهادي التازي.

يعطي الغسال فكرة عن إنجلترا في بداية القرن العشرين، وهي الدولة الاستعمارية التي امتد نفوذها شرقاً وغرباً، تأتيها الخيرات عبر الأساطيل البحرية من كل بقاع المعمور، فازدهرت اقتصادياً وتجارياً وفكرياً واجتماعياً وعسكرياً. عن مظاهر هذا الرخاء والرقي والتقدم كتب الغسال يصف بعض مظاهره. «. . . **وبهذه البلدة دور كبار للبيع والشراء يصعد لطبقاتها بالمكينة فلا تشعر إلا وأنت في الطبقة التي تريد الصعود إليها. وبالجملة فقد انفردت لوندرة على مدن قطر المعمور بشدة الحركات في أشغال التجارة، وقدر سكانها على قدر ما يحررونه في هذا التاريخ بما يقرب من ستة ملايين نسمة. ويرى مصداق ذلك في الطرقات والأسواق والحدائق سيما في محطة طرق سكة الحديد التي هي مبسوطة في الأرض كالجداويل متفرعة إلى جميع الجهات، وبابورات البر بها صادرة واردة**

---

(42) عبد المجيد القدوري: المصدر السابق ص98.

(43) عبد الهادي التازي: سفارة عن السلطان مولاي عبد العزيز إلى لندن. مجلة (البحث العلمي) المغربية ـ عدد 29 ـ 30 ـ سنة 1979م ـ ص191. أنظر كذلك التاريخ الديبلوماسي ـ المجلد الأول من ص 75 إلى 76. وكذلك عبد السلام حيمر: صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية ـ مجلة بصمات، المصدر السابق ذكره ـ ص158.

عليها ليلاً ونهاراً بحيث لا يسافر الإنسان باحدها ولو ساعة إلا وتمر عليه عدة بابورات ما بين صادر وواردة وكلها مشحونة بالركاب والسلع وغير ذلك. وينحير العقل كيف لا تقع بينها مصادمة بسبب غلط من سلوك بعضها في طريق غيره»[44].

دار مجمع نواب الأمة (البرلمان)

اهتم الغسال أكثر من غيره من الكتاب بالحياة السياسية الأوروبية. ولعل هذا الاهتمام قد يفسر بالظرفية التاريخية للرحلة وتكوين صاحبها حيث استفاد من باقي الرحلات ومذكرات زملائه الذين سبقوه في هذا المجال. عن مجلس الأمة ونشاط النواب البرلمانيين كتب: «... ذهبنا للديوان الاجتماعي الرسمي المسمى بدار مجمع نواب الأمة على مصالح الرعية يعني يحضر بها نائب عن كل إيالة أو عمالة وكيلاً عنها في جميع مصالحها ودفع مضارها. وهي دار كبيرة جداً متقنة البناء محكمة الصنعة، قدر الأعيان الذين يجتمعون بها ما يقرب للسبع مائة. وهذا المجلس مؤلف من فرقتين، فرقة في جانب المخزن يحضره كبراء الدولة والوزير المناسب وصفته لتلك المسألة التي تقع المفاوضة فيها، فإن من أشغال الداخلية فيحضر وزيرها، وإن كانت من قبيل أشغال الخارجية فيحضر وزيرها أيضاً وهكذا العمل في كل قضية. والفرقة الأخرى مقابلة لهم تسمى بحزب الأحرار. وكيفية المفاوضة في سائر القضايا ان يقوم خطيب من إحدى الفرقتين يخطب على رؤوسهم بورقة بيده متضمنة لما دار في المسألة، ثم يقوم خطيب من الفرقة مقابلاً لها أو مسلماً بحسب ما يقتضيه المقام. وفي صدر هذا المجلس محل مرتفع على هيئة المنبر يجلس رئيس للمجلس وعلى رأسه قلنسوة بيضاء يتميز بها عن غيره وأمامه كتاب يرسمون ما يتلقونه من أفواه الخطباء في سرعة باهرة، ثم يقوم هذا الرئيس ويخطب خطبة متضمنة لما فيه من الخلاف الواقع بين الفريقين، ويقيم على كل فصل من الفصول أدلة راجحة وبراهين قاطعة تشهد على ترجيحه حتى تكون المسألة واضحة كالشمس في الظهيرة،

(44) عبد الهادي التازي: المصدر السابق ص202.

وقريب من هذا الإيوان محلات رفيعة معدة عندهم للأكل والشرب ولترويح النفس»[45].

ما هو تعليق الكاتب محمد الغسال على مظاهر الرقي والحياة السياسية في إنجلترا؟ وما هي الجوانب التي استحسنها واستفاد منها؟ يجيب فيقول: «... **وبالجملة فرؤية هذه الأمور فيها مواعظ وحكم لا تبصر ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر، وذلك كله من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته الباهرة. وهذا ما يسر الله جمعه في هذه الوجهة الميمونة حفظاً لما اشتملت عليه هذه الغارة السعيدة مما ينبغي ان يحفظ ويعتنى به، وتنبيهاً لمن يتهيأ في المستقبل لمثله ليكون على بصيرة مما في هذا التقييد كله وليقاس ما لم يقل، ولكل مقام مقام»**[46].

خلاصة:

مكنت الرحلة إلى الشرق الحجاج المغاربة من الاطلاع على أهم التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تعرفها اسطنبول، ومصر، وبلاد الشام، وتونس، منذ منتصف القرن التاسع عشر. كما مكنت الفقهاء والتجار ورجالات العلم والمعرفة من اكتشاف والوقوف على مظاهر مختلفة من الحضارة الأوروبية التي أخذت تغزو المشرق العربي وتظهر آثارها وملامحها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. منهم من استحسن بعضها، ومنهم من رفض بعضها. كما مكنت الرحلات الحجازية رجالات الفكر والقلم المغاربة من الاستفادة خلال مقامهم أو توقفهم بأهم مراكز الحضارة العربية الإسلامية من الاتصال والتواصل برواد النهضة العربية والإسلامية، فحضروا دروسهم، وتحاوروا معهم في شؤون الدين والدنيا. هذه المحطات كلها ساهمت في خلق وعي فكري جديد لدى هؤلاء الرحالة المتنورين. وعند عودتهم إلى بلادهم لم يبخلوا على أبناء وطنهم، ولا على الفئات المتعلمة

(45) عبد الهادي التازي: المصدر السابق ص203.

(46) عبد الهادي التازي: المصدر السابق ص208.

منهم، ولا على حكامهم بإفادتهم بما حصلوا عليه من ألوان المعرفة، وما حصدوه من أفكار جديدة دونوها في رحلاتهم الحجازية أو قيدوها في مذكرات قدموها لأهل الحل والعقد للاسترشاد بها والأخذ عنها من أجل القيام بالإصلاحات التي كانت مطروحة على الدولة وأجهزة الحكم لمواجهة التحديات الأوروبية.

أما الرحلات السفارية إلى الغرب والتي قام بها سفراء مغاربة إلى البلدان الأوروبية والتي نشطت منذ منتصف القرن التاسع عشر وإلى نهايته، فتعطينا نصوصها فكرة واضحة عن الصورة التي تكونت لدى السفراء أو كتابهم الذين رافقوهم، صورة عن أوروبا الثورة الصناعية، وأوروبا القوة العسكرية، وأوروبا الأنظمة الاقتصادية والفكرية والاجتماعية، وأوروبا التوسعية والاحتفالية. لقد عبر الكاتب المخزني أو السفير المثقف عن مشاعر التفاوت والتفوق، وردود فعله تجاه هذه الحداثة الأوروبية في كتاباته التي دونها، أو في التقارير الديبلوماسية التي رفعها إلى السلطات الحاكمة. كما عبر عن مشاعر التفاوت والتفوق هذه في تآليف تاريخية، ودواوين شعرية نبه فيها السلطات الحاكمة بما يشكله هذا التفوق من تهديد على مستقبل البلاد وحضارتها وقيمها، موصين ومطالبين حكامهم بالأخذ بالجوانب المفيدة من التي لا تتنافى والعقيدة الإسلامية، من أجل سدّ الهوة التي تفصل بين رقي الغرب وتقدمه والبلاد المغربية. وقد أوصى الكاتب المخزني بالبدء والإسراع في تحديث الجيش والجهاز الإداري والأنظمة الاقتصادية. غير أن الإشكالية التي طرحت على الحكام ورجاله ورواد التحديث والإصلاح تجلت في كيفية التوفيق والمؤالمة بين الأصالة والمعاصرة والتحديث. عن هذه الإشكالية كثرت الاجتهادات، وتعددت الرؤى، وخصبت الحوارات والمشاورات أغنت المكتبة المغربية بنصوص فقهية، وفتاوي شرعية ومقدمات في علم السياسة والاقتصاد والاجتماع. هذا الإنتاج الفكري الغزير بتباييناته وخصوصياته هو الذي يؤرخ لميلاد حركة التنوير والتحديث بالمغرب. وقد راينا أن الرحلة إلى الشرق والرحلة إلى الغرب، تعد رافداً من روافد هذه الحركة.